تجليّات الافتراض المسبق في ديوان "الكبريت في يدي دويلاتكم من ورق" لنزار قبّاني

أ/ مهدي مشتة
جامعة محمد خيضر –بسكرة-

الملخص:

ترتكز التداولية كأساس على دراسة اللغة أثناء استعمالها و استخدامها في سياق التخاطب. و هي تقوم على مفاهيم عديدة من بينها الافتراضات المسبقة باعتبارها ذات طبيعة لسانية تتعلق بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب الذي يتمّ بين المرسل و المرسل إليه في العملية التواصلية. و الخطاب الشّعري ليس بمنأى عن هذا المبحث التّداولي.باعتباره جملا و ملفوظات لغويّة تحوي مجموعة من المقاصد المباشرة والضّمنية التي يعبّر عنها المتكلّم أو المتلقّي أو هما معا.و هذا ما يسعى إليه هذا البحث بمحاولة الوقوف على مفهوم الافتراض المسبق أولا و من ثمة إبراز إمكانية مقاربة هذا المبحث التداولي في الخطاب الشعري. ليحتضن ديوان " الكبريت في يدي ودويلاتكم من ورق " لنزار قباني مجال هذه الدراسة.

Résumé:

La méthode délibérative se base essentiellement sur l'étude de la langue au cours d'usage.

Elle est constituée de plusieurs notions parmis lesquelles les préjugément comme étant de nature linguistique qui se rattache au parties implicites des règles de la parole qui se passe entre émetteur et récepteur dans la communication.

La langue poétique fait partie de la méthode délibérative car elle est considèree comme un ensemble de phrases et de mots qui portent des intentions directes et implicites exprimées par le récepteur.

Et c'est le but de notre recherche en identifiant la notion du préjugément en premier lieu ainsi on arrive la possibilité d'utiliser cette recherche dans la langue poétique ayant comme champs d'étude NIZAR ELKABAN: "Elkibrite fi yadi wa dowaylatokom min warak".

Je porte l'allumette alors que vos pays sont faits de papier.

أولا : مفهوم الافتراض المسبق:

يعدّ الافتراض المسبق أحد المفاهيم التّداولية* المتعلّقة بجوانب ضمنيّة وخفيّة من قوانين الخطاب الذي يتمّ بين المرسل والمرسل إليه في العمليّة التّواصليّة. فلكلّ سياق قول وهذه الأقوال متوقّفة على العوامل الخاصّة بالمتكلمين. والعوامل الخارجة عنهم. وهنا يظهر الدّور البارز للسّياق في فهم القول فبتغيّره يمكن أن يتغيّر القول الذي « هو وليد قصد معين يستمدّ وجوده من شخصيّة المتكلّم ومستمعه أو مستمعيه.ويحصل ذلك في الوسط (المكان) واللّحظة (الزّمان) اللذين يحصل فيهما»[1]

لهذا« تُعتبر الافتراضات بمثابة المعلومات المدسوسة خُفية. أي إنّها تكون مزوّدة بملائمة تواصليّة أقلّ شأنا من تلك التي تتمتّع بها المعلومات البيّنة. كما أنّها تحتلّ مركزا أدنى مرتبة داخل البنية الرّقاقية التي يتألّف منها محتوى الأقوال الإجمالي»[2]. وتحكمها ظروف ملابسات الخطاب العامّة كسياق الحال وغيره.

الافتراض المسبق ذو طبيعة لسانيّة بمعنى أنه يمكن إدراكه عن طريق العلامات اللغوية التي يتضمّنها القول. وهي معلومات لم يفصح عنها المتكلّم. بل أوردها بطريقة آليّة في القول الذي يتضمّنها أصلا بغضّ النّظر عن خُصوصيّته. تقول أركيوني:« تُصنّف في خانة الافتراضات كلّ المعلومات التي.وإن لم تكن مقرّرة جهرا(أي تلك التي لا تشكّل مبدئيا موضوع الخطاب الكلامي الحقيقي الواجب نقله). إلا أنّها تُنتج تلقائيا من صياغة القول التي تكون مدوّنة فيه بشكل جوهري بغض النظر عن خصوصيّة النّطاق التّعبير الأدائي»[3]

ومن هذا المنطلق فالافتراض المسبق إذن هو أمر يفترضه المتكلمون ويسبق تفوّههم بالكلام. وهو لا يكمن في كلمة أو عبارة. فالمتكلّمون وحدهم هم أصحاب الافتراضات المسبقة. إيمانا منهم بأنّ المستمعين عارفون بتلك المعلومات التي تُعدّ جزء ممّا يتمّ إيصاله دون قوله فـ«عند كلّ عمليّة من عمليّات التّبليغ ينطلق الأفراد المتخاطبون من معطيات أساسيّة

معترف بها.لا يصرّح بها المتكلّمون. وهي تشكّل خلفيّة التّبليغ الضّرورية لنجاح العمليّة التّبليغية. وهي محتواة في القول»[4].

وهذا ما شكّل للمتلقي جانبا إغرائيا يمسّ غريزته الفضوليّة.و رغبته الجامحة في كشف مستورها من أجل الوقوف على قصد المرسل ففي أغلب الأحيان«لا يكتفي الإنسان بمظاهر الكلمات عند التّعامل مع النّاس. ولكن يتساءل أحيانا عن مقصد هذه الكلمة أو تلك»[5]. وفي أحيان كثيرة لا يعني الكلام ذلك الجانب التّصريحي. بل يعني دفع المتلقّي وحمله على التّفكير في أمور تلميحيّة –افتراضات مسبقة- وهي ليست غيبيّة. بل متضمّنة في الأقوال المصرّحة. وهذا الضّمني من القول « يُعبّر عن محتوى موجود في الملفوظات بصفة غير مباشرة. وكونه بدون دالّ يميّزه. فإنّ محتواه مرتبط بالمحتوى الصريح الذي يتميّز بداله الخاص. وذلك يمكن اعتبار المحتوى الأوّل موجود ضمنيّا. ولكنّه غائب على السّطح»[6] هذا من جهة. ومن جهة ثانية فمن حقّ المخاطَب بدوره أيضا أن لا يكتفي بالمعاني الظّاهرة (الحرفيّة) الموجودة في الملفوظات. و« أن يلجأ إلى حساب تأويليّ يُمكّنه من إدراك المعاني الضّمنية حساب يفترض فيه الضرورة. و يتوّسم فيه القدرة على إبلاغه ضالّته»[7].

لذا فإنّ عمليّة الإنتاج تتأسّس في ضوء سياق التّلقي الذي يؤدّي دورا محوريّا في عمليّة تأويل الملفوظات. و يُبنى فعل التّأويل على « سلسلة من الاستدلالات التي يقوم بها القارئ أو المستمع الذي يُعوّل كثيرا على قدرته الاستنتاجيّة في تحديد ما يعنيه المتكلّم»[8] الذي خرج ملفوظه عن معناه الحقيقي إلى معاني ذهنية استنتاجيّة يعمل المُتلقّي جاهدا في التّعرف عليها ؛لأنّها ذات طبيعة غير مستقرّة توافق الحالة الّتي تصدر عنها؛ ذلك راجع لتركيبتها اللغوية التي تتعدّد معانيها. و مضامينها إذ أنّه « ما من مضمون إلّا و يجوز أن يأتي من فوقه مضمون غيره. و أن يأتي من فوق هذا المضمون الثّاني مضمون ثالث. و هكذا من غير انقطاع »[9]. هذا وتجدر الإشارة أنّه «كلّما توفّر المتلقي على معلومات عن هذه المكونات

(المتكلّم. المتلقّي الرّسالة الزّمان. المكان. و نوع الرّسالة) تكون له حظوظ قوية لفهم الرسالة.و تأويلها أي وضعها في سياق معيّن من أجل أن يكون لديها معنى»[10].

لا يمكن لأيّ خطاب الاستغناء عن الافتراض المسبق إذ يجعله يسير بصفة متسلسلة غير منقطعة « فباحتوائه على معطيات يعرفها كلّ من المتكلّم والمخاطب لا يعني إلغاء أهميّته أو نفيه. ولكن يُعتبر القاعدة الأساس الّتي يرتكز عليها الخطاب في تماسكه العضويّ»[11]. وتتّصف الافتراضات كذلك بأنّها أقلّ قابليّة للإدراك. وأقلّ أهميّة ظاهريّا و أكثر تبطينا؛ ممّا جعل محتوياتها مضمرة عن جدارة. و لكن« يشكّل هذا التّبطين في آن مصدر قوّتها كما أنّه يزوّدها بقدرة التّلاعب التي تذكّرنا بالقوّة المخيفة »[12].

الافتراضات المسبقة تعبّر عن قصديّة إنسانيّة أُنتج لأجلها الملفوظ. وهذه القصدية تستوجب إعادة بنائها ليتم في ضوئها فهم معناها الكلّي. وللظفر بذلك يجب التّسليم بـ«أنّ معنى الملفوظ ليس هو القصد الدّال على المتكلّم بالذّات.بل هو المعنى الذي يستخرجه المخاطب من الملفوظ منطلقا في ذلك من بنيته الدّالة. ومعتمدا على مجموع الكفايات التي يمتلكها هو. ومقدار الكفايات التي يملكها المتكلّم. وحادسا قصده الدّلالي»[13].

يميّز الباحثون بين نوعين من الافتراضات المسبقة هما: الافتراض المنطقي (الدلالي). والافتراض التّداولي. فبالنّسبة للأوّل. فإنّه يستلزم أن تكون الجملتين صحيحتين (الجملة المحكية والجملة المفترضة) مثل: يعرف محمد أن الأرض كوكب شمسي. فالافتراض المسبق:أن الأرض كوكب شمسي. فإذا كانت الجملة الأولى صحيحة. فإنّ الجملة المفترضة صحيحة. أمّا الثّاني فلا دخل له بالصحة أو عدمها. ويبقى قائما غير متأثّر بالنّفي وخاصّية الافتراض المسبق هذه عموما توصف «بالاطّراد عند النفي. وتعني من حيث الأساس أنّ الافتراض المسبق(التّداولي) لمقولة ما سيبقى ثابتا(أي صحيحا) حتّى عند نفي تلك المقولة »[14]. فإذا قال شخص: سيّارتي جديدة. ثم قال سيّارتي ليست جديدة فعلى الرّغم من تناقض القولين

إلّا أنّ الافتراض المسبق وهو أنّ له سيارة لا يزال قائماً في الحالين. ومن هنا فإنّ كافّة الافتراضات المسبقة هي دائماً صحيحة. وهذا ما أقرّته أركيوني بقولها في الافتراضات التّداولية « أنّها تنفرد بميزة بأنّها قابلة للدّحض.و يمكن التّعلق عليها بشكل لغوي انعكاسي»[15].

ويعرّف ديكرو(Ducrot) الافتراض المسبق بقوله: «عنصر دلالي خاصّ للملفوظ(أ) بتعلقه التحويلي تارة بمجال الاستفهام:هل(أ)؟ وتارة أخرى بمجال النفي:يكون من الخطأ(أ)»[16] ولا بأس أن نمثل لذلك :

أ= (توقف المصنع عن الإنتاج). تحويله إلى استفهام يعطينا

ب= (هل توقف المصنع عن الإنتاج؟). ثم نفيه : ج = (لم يتوقف المصنع عن الإنتاج).

هذه التّحولات تظهر لنا شيئا ضمنيا بين الأقوال الثلاثة وهو: د= (كان المصنع ينتج) والقول "د" هو: الافتراض المسبق. إذ تمكّنا من معرفة حال المصنع بمجرّد تلفّظ المتكلّم بـ "أ" واصطلح عليه ديكرو بالقول المقرّ.

إنّ المتتبّع لحقيقة الافتراضات المسبقة توصلنا إلى نتيجة مفادها أنّه« من الممكن وصف الافتراضات المسبقة على أنّها أفعال كلامية افتراضيّة.و هي في نفس درجة الأمر والاستفهام فلو تلفظنا بـ: (أغلق الباب). فلابد أن يكون هذا التّلفظ له تأثير في المستمع(المخاطَب) ولهذا الأخير القدرة على الطّاعة. وتأويل القول بمعنى"إغلاق الباب" الذي هو مفتوح مسبقا ولا تسند وظيفة الآمر إلّا لمن وُجد في وضع يسمح له بإصدار الأوامر»[17].

ثانيا : الافتراض المسبق و الممارسة الشعرية في الديوان:

الخطاب الشّعري* ليس بمنأى عن هذا المبحث التّداولي(الافتراضات المسبقة) باعتباره جملا وملفوظات لغويّة تحوي مجموعة من المقاصد المباشرة والضّمنية التي يعبّر عنها المتكلّم أو المتلقّي أو هما معا. والشّعراء يوظّفون كلمات و تعابير لها مقصديّة مباشرة

وغير مباشرة. قد تدرك بطريقة ظاهرة. أو تفهم بالتّضمين والتّلميح فـ«الكلام حمّال لوجوه ولو بدا ظاهر المعنى؛ لأنّ الظّاهر لا ينفي الاحتمال»[18].

وكما هو معروف عن النّص الشّعري أنّه يتضمّن عوالم غامضة من الدلالات العائمة. والأفكار الضّمنية التي تختفي وراء متاريس مجازية وإيحائية. وهو يتميّز عن الأقوال العادية بقوّة الانزياح والخرق والتّرميز. والأسطرة.والكثافة البلاغية المعقّدة والمتشابكة المتأرجحة بين معاني حرفيّة قائمة على التّقريرية والمباشرة والتّعيين. ومعاني سياقيّة مبنيّة على التّضمين والإيحاء ومتضمّنة في المعاني الحرفيّة.وهذا يحتاج إلى قارئ ومحلّل وناقد تأويليّ يفكّك الدّلالات في ضوء مقاصدها وسياقاتها الوظيفيّة ؛لأنّ « اعتماد قصديّة النّص أساسا للتّأويل قد يعطيه مصداقية ويضفي عليه صبغته الشّرعية من حيث الفهم. والتّأويل الذي يندرج من الحاضر(النّطق) إلى الغائب (النّاطق).وقد يصنع لنفسه مقاما يفهم في ضوءه القصد وينتهي إليه المراد»[19].

وإذا كان المتخاطبون ينطلقون في كلّ عمليّة تواصليّة من معطيات متعارف و متّفق عليها هي بمثابة افتراضات.حيث«تشكّل هذه الافتراضات الخلفيّة التّواصلية الضّرورية لتحقيق النّجاح في عمليّة التّواصل. و هي محتواة ضمن السياقات. و البنى التركيبيّة العامّة»[20]. فالشّاعر كذلك لا يُبدع من فراغ بل يراعي مجموعة من القواعد تضمن التّجاوب مع نصّه. و قد لا تكون هذه القواعد موجودة من قَبل بل « تبنى في شقّ كبير منها على مجموعة الافتراضات المسبقة تتعلّق ببناء الافتراضات من لدن المبدع عادة بنظيره في العمليّة التّواصلية أي المخاطب أو المتلقي. وتتمّ هذه الصّناعة في ضوء المحيط. فالشّاعر لا يبني نصّه في عزلة عن محيطه. بل يتحرّى مراعاة هذا المحيط إلى أبعد الحدود»[21]. و ما حرصه على ذلك إلّا ليضمن نجاحا لقصيّدته المتأسّسة على حلقة من الافتراضات راعى فيها الشّاعر مبدأ ما أشار إليه البلاغيّون حين قالوا : لكلّ مقال مقام.و الذي يقوم على تصوّر معيّن لنوعيّة

المخاطب. بمعنى أنّ الشّاعر هو في النّهاية متكلّم «لا يبني كلامه في عزلة تامّة عن العالم من حوله بصفة عامة. و عن مخاطبه بصفة خاصّة. بل هو يفعل ذلك في ضوء الفرضيّات التّي يكون بناها مُسبقا عن شخصيّة هذا المخاطب»[22]. ممّا جعل من الخطاب الشّعري نسيجا مركّبا من إشارات و تعبيرات.و دلالات متداخلة تستوجب التّفكيك والفحص. فيعمل المؤوّل كل معارفه. واهتماماته واضعا في الحسبان أنّ الخطاب الشّعري مزيج بين الوعي واللّاوعي حتى يتسنّى له تحصيل فهم يتناسب مع طبيعة هذا الخطاب الشّعري. وهذا ما قاد إلى أنّ« طبيعة الافتراضات المسبقة في النّص الشّعري تختلف عنها في الكلام العادي. فإذا كانت في الكلام العادي ناتجة عن ارتباط بين قضيّتين. فإنّها في النص الشعري نتاج تحقّق النّص الشّعري. وفق شكل معيّن. و بمعايير خاصّة هذا التّحقق هو الذي يتيح للقارئ بناء افتراضاته.

وعليه فإنّنا أمام نمطين من الافتراضات المسبقة. افتراضات مسبقة تخصّ الإنتاج وهي جملة من العمليّات التي تسبق عملية الإنتاج. أي قبل تحقّق الفعل الشعري وهدف هذه الافتراضات الوصول إلى تحقيق التّأثير على المستمع.ويسعى من خلال هذا الفعل - افتراضات التأويل - إلى استنتاج مقاصد المبدع أو الأهداف التي تَوَخّي المبدع الوصول إليها. و ينطلق المتلقّي في صياغة افتراضاته من خلال البنية التي تعتمد مبدأ المشابهة الذي يسمح بتشكيل صورة عن الإنتاج الإبداعي في سياق ما.هذه البنى المتشابهة تصبح فضاء لبناء افتراضات مسبقة تتعلّق بالمحتوى المنتج أو الموضوع»[23].

ولا يتسنّى الوقوف عليها. والكشف عنها«إلّا بما يسمّى بالمناهج التّأويلية التي تتيح لصاحبها استنطاق البنية اللّغوية.و إثرائها بالمعاني.و الدلالات استنادا إلى جملة من الشّروط أوّلها السّياق فالمعنى المباشر للرّسالة سيكون أسهل في وضع لا نملك فيه أدنى معرفة بملابسات الخطاب ؛لأنّ عمليّة التّأويل تحتاج دائما إلى إدراك كلّي بمختلف الجوانب المحيطة به

»[24]. كما أنّ «كلّ تأويل لا يجوز له أن يتناقض مع بعض المعطيات الموضوعيّة تاريخيّة أو لغويّة أو اجتماعيّة...)»[25]

ونزار قبّاني* على امتداد حياته خلق جملة من الأزمات الفكريّة. والأدبيّة. إنّه الشّاعر الذي نسف بكلّ جُرأة وشجاعة جملة من البنى التّقليدية التي ألفها النّاس في تفكيرهم وتقاليدهم الاجتماعيّة منذ أزمنة عدّة. كان شاعرا حرّا.ومتمرّدا في ما يقوله بشأن أهمّ ما شغل البال العربي.والتّفكير. والجوارح والمشاعر والأحاسيس...فدخل مملكة الشّعر فاتحا وغازيا. وكأنّه بركان متأجّج يُعلن العصيان على كلّ التّقاليد. والأعراف البالية. فكان مثالا للمثقّف العاشق ليس للمرأة فحسب بل لترابه. و أوطانه؛ فترك خطابه الشّعري بصمة واضحة لا يتجادل فيه اثنان لأنّه مسّ الحياة العربيّة الشّعبية و الرّسمية. فالشّعر عنده« ليس مجرّد اسم فاعل يحمله ناظم يستطيع تصفيف الكلمات. وإبهار الجمهور. بل هو شعر بالزّمن و مروره.و أحداثه القادمة. وغاياته نبش عميق في مشاعر الأزمة»[26]. ممّا جعله ذلك عرضة لهجمات شرسة ابتدأت مع أهل حيّه.واستمرت مع العديد من الأدباء والحكّام وحتّى رجال الدين.

ولكن يبقى «أنّ المدلول الشّعري يحيل إلى مدلولات خطابيّة مغايرة بشكل يمكن معه قراءة خطابات عديدة داخل القول الشعري»[27]. وقد ورد في الدّيوان* قصائد تخدم هذا المنحى التّداولي- الافتراضات المسبقة- منها قول نزار[28]:

و لقد شنقت على جدار قصائدي
ووصيّتي كانت
بأن لا أدفنا

و يضيف[29]:

لا أدري..كيف أقول الشّعر
فحيث ذهبت يلاحقني السّاطور

كل الأوراق مفخّخة

كل الأقلام مفخّخة

هذان المقطعان يقوداننا لافتراض مسبق يتعلق بالشاعر. و هو وعيه بما يُحدِثه شعره الذي كان مثيرا للجدل بين العامّة. و الخاصّة بمضامينه التي عكست شخصيّته حين قدّم نفسه على أنّه شاعر مزاجيّ لا يلتفت إلى الوراء. و لا يعرف اللّف و الدّوران. ولا يُغيّر جلده كالأفعوان متجاوزا بعض الشعراء.و الأدباء الّذين انقلبوا على قناعاتهم.و ساروا حسب المصلحة بعيدا عن المبدأ هذا ما جعل شعره يقتحم البيوت ويسكن النّفوس رغم معارضته تطرب له الأسماع.وتهفو له القلوب.وكلّ هذا يقودنا لافتراض مسبق آخر هو أنّ نزار مُحرّض.ومثير للمشكلات تَمكّن من تقسيم النّاس إلى فريقين أحدهما معه.والآخر ضدّه وهذا التّقسيم كفيل بإبراز شاعريّته. وذلك بتقديمه على منصّة التّشريح.والنّقد مع كلّ إبداع شعريّ.وما أكّد الوعي السّابق قوله[30] :

إنّني قرّرت أن أدخل

في حرب مع القبح ولا رجعة عن هذا القرار

إنّ هذا المقطع يوضّح الافتراض المسبق الذي أكسبه ذلك الصيت السابق ذكره. ألا وهو إيمان الشّاعر بشعره ؛لأنّه يتضمّن قضيّة عادلة. وهذا يبيّن« أنّ العمل المتضمّن في القول لا يتحقّق إلا عندما يقع إتمام القصد المتضمّن في القول يجسّده الأثر المتضمّن في القول عند التقبل»[31] خاصّة إذا كان يعتبر نفسه شاعر اللّحظة. و الحدث يّعبّر عن ضمير الإنسان العربيّ المُغيّب.و يدخل في حرب قبيحة مع تلك الرّموز الضّعيفة الّتي تكرّس ثقافة الهزيمة والتّطبيع يسمّي الأشياء بمسمّياتها بلا خوف.أو وجل. يقول[32] :

ليس هناك لعب بالكلمات

فعلى الشّاعر أن يختار معاركه

أو يختار السّكنى
في بيت الأموات

يضمّ المقطع افتراض مسبق للشّاعر. وهو إيمانه بأنّ بقاءه في المعركة السّابقة أساسه التّمرّد و الفكر الحرّ بجعل قصائده في مضمونها تحوي نقدا لاذعا للأوضاع السّائدة بلا زيف أو تضليل. وكما هو معلوم فنزار حرص دوما على نقل تلك الأوضاع المتردّية منذ بداياته الشعريّة في محاولة منه لتحرير المرأة العربيّة يقول نزار[33]:

صديقة العمر التي..
أقرأ في عيونها المأساة
صديقة العمر التي تقتسم المنفى معي
و الحزن...و الشتات...

في هذا المقطع افتراض مسبق يؤكد فيه نزار أنّه ظلّ يحمل في حقائب شعره المرأة. وصورة تلك المرأة المقهورة من قبل مجتمعها لن تفارق ذهنه. وشعره حتّى وإن كتب للوطن.

إنّ المسيرة الشّعرية لنزار كانت حافلة بالانتقادات بشنّ حملات شرسة عليها. منذ أن أدرك الشّاعر أنّه مسخّر ليعبّر عمّا يجول في أعماقه عاكسا مشاعر الإنسان العربي أنّى كان موقفه دفاعا عن الحرية الجمال والحبّ فأصابعه سوف تحترق.وسنان الأقلام المناوئة ستطاله في محاولة يائسة لطمس الحقائق و تزييفها. ولكن مع هذا يقول الشاعر[34]:

يقال ألف قصة و قصة عني
فكل مبدع في وطني
يطفو على بحر النّميمة
لكنّني أظلّ دوما واقفا
كالرّمح فوق مركبي

أواجه البروق و الرّعود
و العواصف اللّئيمة
و يواصل[35]:

انتظروا زيارتي
فلست محتاجا إلى تأشيرة
ولست محتاجا إلى معرف
فالنّاس في بيوتهم يعلّقون صورتي
لا صورة السّلطان.

فالمقطعان السّابقان يرسمان افتراضا مسبقا ذوا طابع تداوليّ. وهو ثقة الشّاعر و قدرته على مواجهة التّحديات في معركته.و دفع ثمن مواقفه.و صراحته في المعارك الّتي خاضها وتعرّض فيها لمآسي عديدة.و كان يخرج منها قامة سامقة لا تطالها الأقزام.وأكثر صلابة ورسوخا في الذّاكرة.و استمراره في العطاء.وتحدّي المجهول فكان «ذاتا واضحة المعالم بيّنة الحدود ذات ميزات يستقيم معها تحديد التعبير و ضبط القصد»[36]. ولا أدلّ على ذلك من أنّ قصائده تنتشر بين فئات الشّعب بسرعة البرق بهيمنتها على البيوت. و يبدو أنّه قد وضع في الحسبان مستوى طبيعة كل القرّاء الذين نجد منهم« البسطاء الذين لا يفهمون من النّصوص إلّا المقاصد الظاهرة.و القرّاء الأذكياء الّذين يغوصون في الأعماق لالتقاط المعاني العميقة الموجودة بدورها في سلفا في النصوص»[37].

و حسب سرفوني « فإنّ الشيء الذي يتدخّل في التّأويل أو الإضمار ليس السّؤال "ماذا يقول المتحدّث" لكن السّؤال "لماذا يقول ما يقوله في سياق معين ؟".إذن التّأويل يجري على السؤال الذي يطرح حول التلفظ و ليس على الملفوظ ذاته»[38].و على هذا الأساس نتساءل لم يكون ذكر نزار في مجلس ما يثير الإعجاب و النّفور ؟. ما سرّ هذه

الإشكاليّة ؟.هل كان يجري وراءها حتّى يبقى في المواجهة. أم أنّه لا يقصد ذلك.و لا يعنيه من قريب أو من بعيد ؟.هذا مدعاة لمعرفة هذه الثقة و القوة من دون شك أوضحها الشّاعر نزار في قوله[39] :

انتظروا زيارتي
فالشّعر يأتي دائما
من عرق الشّعب و من أغرفة الخبز
ومن أقبية القمع
ومن زلزال الأعماق

فهذا المقطع يقدّم افتراضا مسبقا حسّاسا.وهامّا يبيّن سرّ هذا النّجاح.وهو تلك النّظرة الثّاقبة للشّاعر التي عكف على نقلها في الشّعر حين لامس شعره أمور شعبه المستجدّة بجرأة ووضوح. و هو يراها تتضخّم على مرأى من عينه أمور اقتربت من أدقّ القضايا الإنسانيّة و تعلّقت بمرارة الواقع العربي الغارق في الممارسات الخاطئة. و التّجاوزات اللّاإنسانية مقدّما صورها قائلا[40] :

لماذا انفجر الصبر ؟
لماذا ساءت الأحوال ؟
و أصبح الصّحن الرّئيسي هو الزّباله
و أصبح العصفور في بلادنا
لا يجد النّخالة
إذن لماذا لا يفرق الفقير في بلادنا
بين رغيف الخبز و الهلال ؟
إذن لماذا في بطون أمّهاتهم
ينتحر الأطفال ؟

إنّ الصّورة البائسة التي رسمها نزار في هذا المقطع توحي بافتراض مسبق متعلّق بالشّاعر يعكس روحه القوميّة الوقّادة. و حسّه الوطنيّ الأخّاذ خاصة في وصفه لحالة الشّعب المحروم من أبسط متطلّبات الحياة الإنسانيّة في المجالين العملي والإنساني. يعيش شططا في الحياة. وصعوبة في العيش شملت كافّة شرائح المجتمع.وقد انتقلت إلى أجنة الأطفال في بطون أمّهاتهم فانتحروا؛ لهذا فقد أحدث هذا الوضع الرّاهن وقعا أليما على نفسيّة الشّاعر و إصابته بجرح في قلبه لن يندمل. و أيقن من خلاله الكثير من المفاهيم و القيم المتعلّقة بأسباب الأزمة المطبقة على الشّعب فراح يقول[41] :

فإذا سألت حاكما منهم
من الّذي ولّاك في الدّنيا على أمورنا ؟
قال لنا : يا جهلة
أما علمتم أنني
أصبحت صهر الله

تشير الأبيات إلى افتراض مسبق. يبيّن طبيعة الصراع السّياسي في المجتمعات العربيّة التي لا يشكّل فيه الشعب مصدر السلطة.وهذا يقف وراء تعفّن الوضع المتعلّق بحاكم يُصرّ على البقاء فلن يغادر موقعه.و لو قدّر له أن يقهر الشّعب حتّى لا يقبل شريكا له في السّلطة موهما نفسه بأنّه مختلف فسيبقى حاكما ما بقي على قيد الحياة.وهو في الوقت نفسه السّبب الرّئيس الذي جعل الشّعب يعيش الوضع المزري.يضيف الشّاعر عن الحاكم قائلا[42]:

ما جاء يوما حاكم لهذه المدينة
إلا دعا النّاس إلى المسجد
يوم الجمعة
وقال في خطبته العصماء

بأنّه من أولياء الله

و أصفياء الله وأصدقاء الله

إنّ هذا المقطع يساند المقطع السّابق ليقدّما معا افتراضات تتعلّق بشخصيّة الحاكم يستند عليها ليُبيّن شرعيّة حكمه.وهي في الوقت ذاته أسباب تُجبرُه حين يرى في نفسه أنّه أعقل النّاس فلا يصلح غيره لهذه الوظيفة. وهو المعصوم الذي لا يخطئ.و المصان الذي لا يهان. إنّه الزّعيم الملهم.و القائد الموحى إليه.و بالتالي حُقّ له أن يجهّل الشّعب.و يسلخهم من انتمائهم فأصبح الحاكم هو بيت الدّاء الذي يفترض أن يكون مصدر الدّواء فيَظلم و يَبتز يهمل. و ينكر. يتجاهل و ينسى...يقول نزار[43]:

من كلّ صوب يهجم الجراد

و يأكل الشّعر الذي نكتبه

ويشرب المداد

من كلّ صوب يطلقون نفطهم علينا

و يقتلون أجمل الجياد

فكاتب مدجّن

و كاتب مستأجر

وكاتب يباع في المزاد

جسّد هذا المقطع افتراضين مسبقين أحدهما يمثل نظرة إيجابية والآخر نظرة سلبية ويُعبّران معا عن وعي الشّاعر السّياسي وفكره الرّاقي. أما الافتراض المسبق الذي يمثل النظرة الايجابية فهو تأكيد الشّاعر على أنّ المثقّفين هم فرسان التّغيير.و هم من يُديرون عجلة الزّمن حتّى لا تعود إلى الوراء. وهم القادرون على التّعبير عن معاناة الشّعب في جميع نواحيها فحناجرهم. و أقلامهم الشّريفة هي التي تستطيع أن تُغيّر.و تُساهم بفكرها.و قلمها بما يمكنها من أجل الشعب بإخراجه من محنته المعاشة ؛لأنّهم يعون معنى الوطنيّة الحقيقيّة.

و الافتراض المسبق ذو النظرة السلبية هو وجود فئة من المثقّفين حادت عن جادّة الصواب.فئة من المنافقين المثقّفين لا يملكون فكرا.ولا انتماء لأرضهم.و شعبهم.و لقضايا أمّتهم اتّخذهم الحاكم حتى يعملون من أجل المنفعة الشّخصية بنفاق سياسي متمثّل في تأييد الحاكم على التّسلط بكتاباتهم التي لا يراعون فيها فهما. و لا يصونون بها علما. ممّا جعل الحاكم يستمدّ منهم شرعيّة وجوده وحكمه. ولا يرون ظلمه إلا حقّا يطوعون به نصوصهم وإبداعاتهم الأدبية التي تشكّل مصدرا لتخدير العامة بالدّعاية لذلك النّظام وينشرون بها اليأس.والرّضوخ بين النّاس حتّى يروا في حاكمهم القدوة.والمثل لا حاكم السّوط الذي يجلد ظهورهم.وهذا كلّه تحت قناع الإصلاح والتّغيير.

وإذا كان« الضّمني يؤدّي إلى اجتناب الشّرح لغايات معيّنة تخصّ المقام.أو طبيعة العلاقة التي تربط المخاطب بالمتلقّي (الجمهور)»[44] فنزار قد اختزل بافتراضاته المسبقة الكثير ممّا يجب أن يقال بصراحة خاصّة في الخطاب السّياسي. و محاسبة ذات الذّهنية العربيّة التي تعاني الكثير من الأمراض المتراكمة يقول[45]:

فنحن منذ أن توفّي الرّسول
سائرون في جنازة
و نحن منذ مصرع الحسين
سائرون في جنازة
ونحن من يوم تخاصمنا على البلدان
في غرناطة

موتى و لكن ما لهم جنازة.

هذا المقطع تأكيد لافتراض دلالي هام.و هو الذي قاد الأمّة إلى ما وصلت إليه والمتمثّل في خسارتها لذاتها منذ زوال رموز حضارتها العربيّة الإسلاميّة.ففجائع الفقدان في

تاريخنا أقرّ الشّاعر أنّها بدأت منذ وفاة النبي الكريم. مرورا بقتل الحسين عليه السلام و صولا إلى سقوط غرناطة حتى يبدو الأمر. و كأنّه فجيعة من فصول متعاقبة تبرر و تفسّر حالنا البائس.

ومن هنا نستنتج « أنّ كلّ الأقوال المضمرة تحوي كلّ الأخبار القابلة لأن تكون محمولة بواسطة الملفوظ. فهي تقوم على قصديّة المتكلّم. وحدس المخاطب الذي يلجأ إلى الحسابات التّأويلية لفكّ رموزها»[46]

إنّ تتبّعنا للافتراضات المسبقة السابقة التي بنى عليها الشّاعر نزار قصائد المدوّنة وجدنا أنّ محتوياتها المضمرة جاءت في الواقع مرآة لم عرف به نزار.وهي تشكّل«على حدّ تعبير منقونو سُلَّما من المتضمّنات المتحقّقة»[47].

كما يمكن الاستنتاج أيضا من قصائد الديوان بعض الافتراضات المسبقة المتعلّقة بالحياة الشّخصية للشّاعر منها قوله[48]:

كل ما ارتكبته
أنّي رفضت القمع
و الايدز السّياسي

و الفكر المباحثي
و الأنظمة الذّميمة.

هذا المقطع يقودنا إلى افتراض مسبق مفاده أن نزار مارس السياسة. و لكنّه لم يجد لشعره نظرية سياسية يروّج لها.و لم يتبنّى منهجا إيديولوجيا يدعو إليه مادام لم ينظمّ تحت أيّ لواء حزب سياسي. و هذا إثبات آخر بأنه عروبي وقومي.

ويقول أيضا في حديثه عن ما حدث له في بلدان العالم أثناء سفره[49]:

تقول لي سائحة شقراء من فرنسا :

بلادكم أجمل ما شاهدت من بلدان
فالماء فيها ضاحك
والورد فيها ضاحك

نستنتج من هذه الأسطر افتراضا مسبقا هو أن نزار قد زار كثيرا من بلدان العالم وذلك لأنّه عمل فترة طويلة في السّلك الدّبلوماسي.و هذا ما جعل قصائده تزعج مختلف التّيارات؛لأنّه لامس سلوكها. وأمراضها و طبائعها.

ويقول نزار في أحد مقاطع قصيدة الوضوء بماء العشق و الياسمين[50]:

أعود إلى الرّحم الذي تشكّلت فيه
و إلى الكُتّاب الأوّل الذي قرأت فيه
أعود
بعدما تناثرت أجزائي في كل القارات
و تناثر سعالي في كل الفنادق

الافتراض المسبق هنا يدل على أن نزار عاش غربة عن وطنه.و مع ذلك بقي وفيّا. و محبّا لكلّ ذرّة من ترابه خاصةّ الشام مسقط رأسه التي عاش في أحضانها بين ياسمينها. و فلّها فدمشق وحدها أقدم عواصم العام. و أقدرها على البقاء يقول نزار«إلى كل فنادق العالم التي دخلتها حملت معي دمشق. و نمت معها على سرير واحد»[51].

ويبقى فكّ غموض متضمّنات القول عموما وفي هذا الديوان خصوصا مرهونا بعمليّات الاستنتاج و التّأويل التي يقوم بها المخاطب. و بقدرته على استنباط صحيح للقضايا التي توفّرت في الخطاب و هذا بالاستناد إلى ما يحيط به من أوضاع سياقيّة مختلفة و مع ذلك فقد أوعز لنا هذا المبحث التّداولي في الديوان أنّ الشّاعر نزار قباني قد طاف بأشرعة الشّعر عوالم الحريّة. و خاض بقلمه غمار السّياسة يدافع عن عروبته. و وطنيته يدقّ

بقصائده السّياسيّة ناقوس الخطر. و يؤكّد أنّها ذات أبعاد قوميّة.و صرخة احتجاج وتمرّد على الواقع؛ لأنّ «كلّ وحدة من وحدات المحتوى سواء أكان بيّنا أم مضمرا ترسيخ نصّي مباشر أو غير مباشر»[52]. وهو أنّه شاعر ملتزم بامتياز. يوقظ في الإنسان العربي المغلوب على أمره الصّحوة. ويجعلها تنبض بصدق المعاناة. ومكابدة الهموم. لم يكن فيها خجولا في اقتحامه المحظورات وكأنّه موكل بالتّعبير عن ملايين العرب.

الهوامـــش و المراجـــع

*التّداوليّة مجال معرفيّ جديد في حقل الدّراسات اللّسانية و الإنسانيّة على وجه العموم ، تختصّ بدراسة علاقة النّشاط اللّغوي بمستعمليه وطرق ، و كيفيّة استخدام العلامات اللّغوية بنجاح، و السّياقات،و الطّبقات المقاميّة المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب ، وقد برزت التّداولية بشكل خاص بنظريّة الأفعال الكلاميّة التي تبناها أوستن (Austin)، وطوّرها من بعده سيرل (Searle) ، و بعض فلاسفة اللّغة من بعده لتتضّح فيما بعد المحاور الأساسيّة للدّرس التّداولي (الإشاريات ، الافتراض المسبق، الاستلزام التّخاطبي ، أفعال الكلام).للتوسع ينظر كتاب : محمود أحمد نحلة،آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ،دار المعرفة المصرية ، 2006ص 09 و ما بعدها .

1 - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص14

2 - كاترين كيريرات أركيوني،المضمر ، ترجمة ريتا خاطر، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ط1 ديسمبر 2008م، ص 45/44

3- المرجع نفسه ، ص 48

4 - الجيلالي دلاش ،مدخل إلى اللسانيات التداولية ، ترجمة: محمد يحياتن ،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ،1992 م ،ص 34

5 - أحمد عبد الرحمن حماد، العلاقة بين الفكر واللغة ، دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية،1985، ص 59

6- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل، تيزي وزو،ط2، 2012م،ص195

7 - حافظ إسماعيل علوي ، التداوليات علم استعمال اللغة ، عالم الكتب الحديث ،الأردن،2011م،ص138

8- محمد خطابي، لسانيات النص ، بيروت، المركز، الثقافي،ط1، 1991م ، ص 196

9- طه عبد الرحمن ، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، الدار البيضاء ، بيروت ،ط1، 1988 م، ص 23

10- محمد خطابي، لسانيات النص ، ص 297

11- ذهبية حمو الحاج ، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، ص 196

12- كاترين كيريرات أركيوني،المضمر، ص 46

13- حافظ إسماعيل علوي ،التداوليات علم استعمال اللغة ، ص 128
14- جورج يول ، التداولية ، ترجمة قصي العتابي،دار العربية للعلوم ،الرباط ، ط1، 2010 م ،ص52
15- كاترين كيريرات أركيوني،المضمر ، ص71
16- عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية ، منشورات الاختلاف ،الجزائر ط1 2003م، ص 112
17- ذهبية حمو الحاج ، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، ص 136
* جاء في كتاب عبد الهادي بن ظافر الشهري(ص39) أن حدّ الخطاب «كل منطوق به موجّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا مع تحقيق أهداف معينة» ، لذلك يُعدّ الشّعر خطابا، وهو من بين أرقى الوسائل التّعبيريّة الّتي اخترعها الإنسان ليُعبّر عن خلجاته النّفسية و ليُؤسّس عالما تواصليّا يشمل جميع العناصر المختلفة الأبعاد الّتي تُشكّل عالم الإنسان الاجتماعي و الثقافي و الأنثربولوجي...
18- طه عبد الرحمن ، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، ص165
19- أحمد مداس، مفهوم التأويل عند المحدثين ، مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية ،جامعة محمد خيضر بسكرة ، جانفي 2009، العدد4 ،ص 118
20- مسعود صحراوي ، التداولية عند علماء العرب،دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت،لبنان، ط 1،2005 م ص 31
21 - شيتر رحيمة ، تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب أنموذجا، رسالة دكتوراه ، إشراف : عبد القادر دامخي جامعة الحاج لخضر باتنة ، السنة الجامعية : 2009/2008، ص259
22 - حافظ إسماعيل علوي ، التداوليات علم استعمال اللغة ، ص 133
23- شيتر رحيمة ، تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب أنموذجا،ص260
24- دندوقة فوزية ، التأويل و تعدد المعنى ، مجلة كلية الآداب و اللغات و العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، العدد4، جامعة محمد خيضر ،بسكرة ، جانفي 2009، ص129
25- دريد الادريسي، سيمياء التأويل (الحريري بين العبارة و الإشارة) ، شركة النشر و التوزيع المدارس الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص 30
* نزار قباني شاعر عربي. ولد في دمشق (سوريا) يوم 21مارس عام 1923 من عائلة دمشقية ، حصل على البكالوريا من مدرسة الكلية العلمية الوطنية بدمشق ، ثم التحق بكلية الحقوق بالجامعة السورية وتخرج فيها عام 1945 التحق بعد تخرجه بالعمل الدبلوماسي،وتركه في ربيع 1966 ، وتفرغ للشعر. وكانت ثمرة مسيرته الشعرية إحدى وأربعين مجموعة شعرية ونثرية، ، وافته المنية في لندن يوم

1998/4/30 عن عمر يناهز 75 عاما قضى منها أكثر من 50 عاما في الحب و السياسة و الثورة .ينظر:حبيب بوهرور ،تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، عالم الكتب الحديث، الأردن ، ط1، ص214 إلى219

26 ابراهيم سعيد ، سقوط النظام في عيون نزار قباني ،جريدة القدس، العدد7004، 2011، ص10

27 جوليا كريستيفا ،علم النص،ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، توبقال،للنشر،الدار البيضاء المغرب، ط2 ، 1997 م ، ص 78

* التعريف بالديوان : يعد ديوان "الكبريت في يدي ودويلاتكم من ورق" الصادر عام1989م؛أحد الدواوين الشعرية ذات الطابع السياسي التي نظمها نزار قباني، وهو يقع في الجزء السادس من سلسلة الأعمال السياسية الكاملة ، يتألف الديوان من ثلاث و عشرين عنوانا موزعة على مائة و ثلاث و ستين صفحة ، و الفترة التي كتبت فيها هذه القصائد و الموضوعات هي فترة الثمانينيات ، ودليل ذلك هو وجود بعض التواريخ التي صاحبتها.

28- نزار قباني،ديوان الكبريت في يدي ودويلاتكم من ورق، منشورات نزار قباني بيروت،.لبنان، ط4 ،1998م ص 23

29 -الديوان ، ص 31

30- الديوان ، ص 33

31- فليب بلانشيه ،التداولية من أوستين إلى غريمان،ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار السورية ، ط1، ص149

32- الديوان ، ص 35

33- الديوان ، ص 86

34- الديوان ، ص 18

35- الديوان ، ص 50

36- حبيب مونسي، فلسفة القراءة و إشكالية المعنى، دار الغرب للنشر و التوزيع ، الجزائر،2000، ص 288

37- حميد حمداني ،القراءة و توليد الدلالة (تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1 ، 2003م، ص105

38 - ذهبية حمو الحاج ، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، ص 196

39 - الديوان، ص52

40- الديوان، ص56
41- الديوان، ص 55
42 -الديوان، ص 53
43- الديوان، ص 90
44 - ذهبية حمو الحاج ، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، ص196
45- الديوان، ص 73
46 - ذهبية حمو الحاج ، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، ص196
47 - عمر بلخير، مقالات في التداولية و الخطاب ، ص259
48- الديوان، ص 20
49 - الديوان، ص 80
50- الديوان، ص 109/108
51- نزار قباني،قصتي مع الشعر،نزار قباني،قصتي مع الشعر،منشورات نزار قباني،بيروت،لبنان،ط1،ص 36
52- كاترين كيريرات أركيوني،المضمر ، ص 34